بين التأليف والترجمة

يقسم الفيلسوف الألمانى «شوبنهاور» المؤلفين إلى قسمين : هؤلاء الذين يكتبون من أجل الموضوع الذى يختارونه أو يعن لهم واستيفائه والإحاطة به . وهؤلاء الذين يكتبون لمجرد الرغبة فى الكتابة ، والحرص عليها ، والاندماج فى زمرة الكتّاب . وهو يرى أن الفريق الأول قوم لهم أفكار وآراء ، وتجارب ومشاهدات تبدو لهم جديرة بأن يجمع متناثرها ، وتسجل أخبارها ، وتنقل إلى غيرهم من الناس ليفيدوا منها علما وتجربة ، ويستمتعوا بقراءتها . أما الفريق الآخر فإن الذى يحدوهم على الكتابة هو الحرص على المال ، والرغبة فى الكسب ، ليسدّوا حاجاتهم ، ويقضوا مطالبهم ، ومن اليسير تبيّن سماتهم من الطريقة التى يتبعونها فى مطّ أفكارهم الزائفة ، وآرائهم الملتوية ، وتجنّب الوضوح والإبانة ، حتى لا يتكشّف تهافت منطقهم وشطط اتجاهاتهم ، ولذلك ينقص كتاباتهم التحديد والتحقيق ، وسرعان ما يدرك الإنسان أنهم يكتبون لملء الصفحات دون أن يأتوا بشىء جديد . وقد يعرض ذلك لبعض المؤلفين من الحين إلى الحين ، ولكنه الحالة الغالبة على المؤلفين العاديين ، وأمثال هؤلاء لا تجدى قراءتهم ، لأنهم يجترون أفكار غيرهم ، ولا يحسنون عرضها . ويستعيرون من غيرهم ولا يحسنون الاستعارة .

والذى يكتب من أجل الموضوع والإحاطة بأطرافه ، وجلاء غوامضه ، وإلقاء الضوء على مشكلاته ، هو الذى يكتب شيئا جديراً بالكتابة ، وخليقاً بأن يفيد منه القراء . وفى أوقات ازدهار الأدب والتأليف يكثر الكتاب

المجيدون ، وفى أوقات التخلف وعصور الانحطاط يكثر أدعياء الكتابة والمؤلفون الفارغون .

ويقسّم «شوبنهاور» المؤلفين إلى ثلاثة أنواع ، النوع الأول : الكتّاب الذين يقبلون على الكتابة فى أى موضوع من الموضوعات دون أى تفكير سابق ، ويكتفون بالاعتماد على ما احتوته معلوماتهم ، وما علق بذاكرتهم من الكتب التى سبق لهم الاطلاع عليها ، وهؤلاء هم الفريق الأكثر عدداً .

والنوع الثانى من الكتّاب هم أولئك الذين يباشرون التفكير حينما يشرعون فى الكتابة ، والحافز لهم على التفكير هو الرغبة فى الكتابة ، وهؤلاء كثيرون ، وإن كانوا أقل عددا بطبيعة الحال من كتّاب النوع الأول .

وهناك فريق ثالث من الكتّاب ، وهم الكتّاب الذين يفكرون قبل الإقدام على تناول الموضوعات والكتابة فيها ، وهؤلاء يدفعهم إلى الكتابة فرط امتلائهم بالموضوعات التى أجادوا دراستها ، وأوسعوها بحثا وتنقيبا ، وعرفوا أصولها وفروعها ، ولم يند عنهم مرجع من مراجعها المأثورة ، أو جانب من جوانبها المتعددة ، وهؤلاء هم القلة النادرة . على أن بعض هؤلاء لا يستمدون الدافع القوى إلى البحث من نفوسهم ، وإنما قد توحى إليهم الرغبة فى البحث والتوسع فى مراجعة المصادر التى اعتمدوا عليها ورجعوا إليها ، أى أنهم لابد لهم من دافع إلى البحث من أفكار غيرهم ، فهم من أجل ذلك عرضة لأن يقعوا تحت تأثير غيرهم من المؤلفين القدامى ، فتعوز كتبهم الطرافة والتجديد .

وقد يروقنا أحد المؤلفات لا لأن كاتبه قد ارتفع فوق مستوى الكتّاب العاديين ، وإنما لأنه قد أتيحت له فرصة لم تتح لغيره . فالذى رأى حادثة تاريخية مأثورة رأى العين ، وعرف خفاياها ووصفها لنا ، أو الذى زار ناحية من النواحى لم يسبق لأحد غيره العناية بوصفها ، واستقصاء تاريخها ، والوقوف

على عادات أهلها وتقاليدهم ، يثير اهتمامنا ، ويدفعنا دفعاً إلى قراءة كتابه ، والإفادة من مؤلفه .

والمؤلف الذى نعجب به ونفيد منه لابد فى أغلب الأوقات أن تتوفر فى كتابته ثلاث صفات هامة : إحداها عقلية ، والثانية أخلاقية ، والثالثة جمالية . وقوام الصفة العقلية وضوح الرؤية فى ذهن الكاتب ، فهو لا يجرى القلم على الطرس إلا بعد أن يكون قد استكمل صورة الفكرة التى سيبديها ، ووضحت له معالمها وأبعادها . والجانب الأخلاقى يعتمد على صدق سريرة الكاتب وإخلاصه وإيمانه بما يقول . أما الصفة الجمالية فمردّها إلى قدرة الكتّاب على براعة العرض وجمال التنسيق ، فقد يكون الكاتب صاحب أفكار ، ولكنه لا يجيد عرضها والتعبير عنها .

والقراء الذين يحسنون القراءة يقدّرون الكتب بما تزودهم به من معرفة ، وما تطلعهم عليه من آفاق ، وما تسمو بنفوسهم إليه من مستويات عالية ، وما تدخله على نفوسهم من بهجة ، وما تشعرهم به من متعة . فإذا أخلّ الكتاب بأى صفة من هذه الصفات ، أخذ ذلك على مؤلفه ، وعد من عيوبه . والكتب الخالدة التى آثرت الإنسانية الإبقاء عليها والاحتفاظ بها تمتاز جميعها بهذه المزايا الثلاث ، فهى تمدنا بطريف المعلومات ، وتهذّب نفوسنا بما تقدمه لنا من مثل أخلاقية رفيعة ، وترضى مشاعرنا الفنية بما فيها من براعة العرض وجمال البناء .

ولم تكن حاجة الإنسانية إلى الترجمة فى مختلف عصور الحضارة بأقل من حاجتها إلى التأليف ، وربما كانت الحاجة إلى الترجمة فى العصر الحاضر أشد وأقوى مما كان فى العصور السالفة ، وذلك لسهولة المواصلات بين الأمم المختلفة فى العصر الحاضر ، وتوافر العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية

بينها . وليس الخطأ فى الترجمة فى هذا العصر بأقل سوء عاقبة من خطإ الصيدلى فى إعداد وصفة الطبيب التى ربما نشأ عنها موت المريض ، وقد يكون الخطأ فى الترجمة أفدح من ذلك عاقبة وأشد خطراً ، لما ينجم عنه من سوء العلاقة بين الأمم ، والقضاء على أسباب التفاهم بينها . والترجمة منذ أقدم العهود محاولة لتحطيم الحواجز المضروبة بين الأمم وطريقة لإيجاد حسن التفاهم وتوثيق العلاقات الطيبة التى تعين على تهوين أمر الخلافات ، وتسوية المشكلات والأزمات .

وقد مارس الكثيرون فى مختلف الأمم الترجمة ، وعرفوا مشكلاتها ، ومنها مشكلات قد تستعصى على الحل فى بعض الأوقات . ولعل هذا هو مصدر الرأى القائل «إن المترجم خائن» ، وذلك لأنه كما يقول المثل العربى «يكدم فى غير مكدم» ويحاول محاولة يائسة ، لأن لكل لغة معانيها الخاصة ، وتصوراتها النابعة من البيئة التى يعيش بها المتحدثون بها ، ولها مصطلحاتها المتصلة بمستواها الثقافى ونظرة المتحدثين بها إلى الحياة والكون ، ولها ألفاظها الملونة بلون عاداتهم وتقاليدهم والمستمدة من نسيج فكرهم ولون طبعهم . ولكل كلمة فى أية لغة من اللغات معناها الخاص الذى قد يعجزنا أن نجد له نظيراً فى اللغة الأخرى التى نحاول نقل معناها إليها . ومن أجل هذا لم يكن لبعض اللغات — حتى اللغات الغنية بألفاظها ومعانيها ومصطلحاتها العلمية والفنية ندحة عن نقل بعض الكلمات بنصها من اللغات الأخرى . وكثيراً ما تقابلنا فى الكتب الإنجليزية والفرنسية ألفاظ ومصطلحات من اللغة اليونانية القديمة واللغة اللاتينية ، لأن الإنجليز والفرنسيين لم يجدوا لها مقابلا يعبر عنها بالدقة الكافية فى لغتهم . واللغة العربية ، على مالها من ثروة لغوية وما بها من مرونة وقدرة على الاستيعاب ، قد استعارت الكثير من الألفاظ الفارسية ، والتركية ، وبعض اللغات الأوربية الحديثة .

والمترجم ، مهما بذل من الجهد وأوتى من العلم ، لا يستطيع أن يرتفع إلى مستوى الأصل الذى نقل عنه .

ويصدق هذا عن ترجمة النثر والشعر ، ولكنه أظهر فى ترجمة الشعر . وقد وجدت فى اللغات الأوربية ترجمات بارعة مشهود لها بالقدرة والكفاية لطرائف الأدب اليونانى والأدب الرومانى ، ولكن لم يقل أحد من النقاد العارفين ، الذين يمكن الاعتماد على آرائهم ، إن هذه الترجمات قد تسامت إلى مستوى تلك الطرف النادرة . وغاية ما يمكن أن يقال فيها أنها ترجمات أمينة بارعة تقرب إلينا المعنى الأصلى ، ما دمنا نجهل اللغة التى كتبت بها تلك الطرف . وفى اعتقادى أن ترجمة الكتب العلمية أقل صعوبة من ترجمة الطرائف الأدبية ، لأن المصطلحات العلمية قد يسهل تحديد مداها ، والتعبير عن محتواها ، أما ترجمة الآثار الأدبية فإنها لا يغنى فيها إجادة معرفة اللغة التى تنقل منها واللغة التى تنقل إليها ، لأنها فى حاجة ماسة إلى لون من ألوان الحدس والحساسية الفنية ، قد لا يتيسر وجوده عند الكثيرين ممن يتصدون للترجمة . وليست الأمانة فى الترجمة متوقفة على ما جرى العرف بتسميته الترجمة الحرفية ، فقد تكون هذه الترجمة على نقيض ذلك ، لأن لكل لغة ظلالا من المعانى تحوم حول ألفاظها ، فإذا نقلت هذه الكلمات إلى لغة أخرى نقلا حرفيًّا لم يراع فيه ارتباطها بالجمل التى وردت بها وصلاتها بسياق الحديث واتجاهه ، فإنها لا تؤدى المعنى المقصود أداء وافياً ، وتعوز الترجمة الدقة والأمانة فى هذه الحالة .

فإذا كان التأليف فى حاجة إلى عقلية أصيلة ومواهب متعددة الجوانب ، فإن الترجمة كذلك فى حاجة إلى لون من ألوان الأصالة ، وضرب معين من ضروب الاستعداد لا يسهل توفره فى كل الأوقات ، وفى الكثير من الناس . وكما أن المؤلف الممتاز من الأشياء النادرة ، فكذلك المترجم القدير الذى يحسن

النقل . ولا يقصر كثيراً عن الأصل الذى ينقل عنه ، ليس من المظاهر العادية المألوفة ، بل هو من الأشياء التى قد لا يتوفر وجودها فى كل زمان .

ولا أحسب أن هناك مانعاً من اجتماع الأصالة فى التأليف والقدرة على الابتكار مع موهبة الترجمة والقدرة على استشفاف روح المؤلفين ، فالكاتب البريطانى الكبير « توماس كارلايل » كان فى طليعة الكتاب البريطانيين فى القرن التاسع عشر ، وقد استطاع أن ينقل فى خلال الفصول التى كتبها عن مشاهير الكتاب والشعراء الألمان أمثال : شيلر ، ورختر ، وورنر ، وغيرهم مختارات من أدبهم تبين مزاياهم ، وتكشف عن خصائصهم الفنية ، وقد قام بنقل رواية « وليام مايستر » التى ألفها الشاعر الحكيم « جيتى » إلى اللغة الإنجليزية ، نقلا يعد من طرائف الأدب وبدائع الترجمة . وقد قام « جيتى » نفسه بترجمة مختارات من شعر حافظ الشيرازى إلى اللغة الألمانية ، وكان « شوبنهاور » ، على أصالته ، يعهد فى نفسه القدرة الفائقة على الترجمة ، فعرض على إحدى دور النشر فى إنجلترا أن يقوم بترجمة كتاب « نقد العقل الصافى » ، وأرسل إليها أنموذجا من ترجمته ، ولكن تلك الدار أحجمت عن الإقدام على ذلك مما كان سبباً فى تأخير ترجمة الكتاب إلى اللغة الإنجليزية . وقد قام المرحومون العقاد ، والمازنى ، وشكرى بترجمة بعض الأشعار من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية ترجمة تجمع بين الأمانة والإجادة ، وهم من الأدباء المجددين الذين لا يشك فى أصالتهم وقدرتهم على التجديد فى الأدب العربى . ومستوى ابن المقفع فى « الأدب الصغير » و « الدرة اليتيمة » لا يقل بحال عن مستواه فى « كليلة ودمنة » المنقول عن اللغة الهندية ، مما يدل على أنه كان يجمع بين أصالة التأليف وموهبة الترجمة . وأحسب أن هذا يصدق على الفيلسوف العربى الأندلسى الكبير « ابن رشد » .

وموجز القول إن التأليف يحتاج إلى الاطلاع الواسع ، والفكر الراجح ،

وقوة الخيال والتصور والحساسية الفنية ، كما أن معالجة مشكلات الترجمة وممارستها والتغلب عليها فى حاجة إلى سعة المعرفة ، والقدرة على فهم أسرار اللغات ، واستشفاف روحها من خلال الألفاظ والتعبيرات . وإذا كان التأليف يعتمد على الأصالة والقدرة على الابتكار ، فإن الترجمة كذلك تستلزم لوناً خاصًّا من ألوان الأصالة والاستعداد .